نظريات حصول ملكة اللغة
عند العلماء العرب

حسين بن زروق
- جامعة الجزائر

يجد المتتبع والدارس لمساهمة العلماء العرب في مجال البحث العلمي في شتى العلوم أنهم قد توصلوا إلى اكتشاف وإبداع نظريات علمية عديدة كانوا السباقين إليها وتتفق مع ما يقوله العلم الحديث بل قد تفوقه في بعض الأحيان .

ومن خلال هذا سنحاول في هذا العرض بيان ما أبدعه العلماء العرب القدامى في مجال تعلم اللغة أو حصول ملكتها على حد تعبير هؤلاء العلماء ونقارن ذلك مع ما يقوله العلم اللغوي الحديث ، ونخص بالذكر العلامة ابن خلدون باعتباره الأول الذي صرّح وفصّل كيفية حصول ملكة اللغة .

قبل تناول كيفية حصول هذه الملكة اللغوية لابد لنا من تعريف الملكة عموماً والملكة اللغوية بصفة خاصة ثم بيان مفهوم ملكة اللغة العربية أو ما يعرف بالعربية الفصحى .

مفهوم الملكة لدى العلماء العرب القدامى :

لقد وجدنا للملكة تعريفاً جامعاً مانعاً عند الكثير من هؤلاء العلماء عموماً مع بيان كيفية حصولها مما يدل على تعمقهم في البحث والدراسة ، فهذا يأتي بشيء ، وذاك يكمله ، ومنهم من استعمل مصطلح ملكة ، ومنهم من استعمل مصطلحات أخرى كمصطلح العادة والصناعة كما سنبين .

يذكر الفارابي (260هـ - 339هـ) أن الملكة تحصل عن طريق التكرار المستمر لفترات

متعددة وهي نوعان ، ملكة خلقية أو روحية وصناعية أو مادية[1] . ويتم اكتسابها نتيجة الاعتياد الحاصل عن تكرار الشيء الواحد في فترات متقاربة[2] ، وتتميز بالرسوخ وعدم الزوال كملكة الأخلاق الحسنة[3] .

ويعبر إخوان الصفا (عاشوا في القرن الرابع الهجري) عن مفهوم الملكة بمصطلح العادة عندما يبينون أن المهارة في الشيء وإحكامه غاية الإحكام تكون نتيجة التدريب المستمر كمهارة البحث والأخلاق والصنائع[4] .

أما ابن سينا (370هـ - 438هـ) فيعبر عن مفهوم الملكة بالصناعة ، ويدقق مفهومها تدقيقا عجيباً وهو أن الملكة صناعة نفسية يعيها الإنسان قبل تعلمها ، ولكنه لا يشعر ولا يعي كيفية القيام بها ، وهذا طبعاً بعد اكتسابها وإحكام الأفعال التي تصدر عنها بقوله : «والصناعة ملكة نفسانية تصدر عنها أفعال ، ارادية بغير روية تنحو تماماً مقصوداً»[5] .

كما استعمل أبو حيان التوحيدي مصطلح العادة بقوله : «قيل فما العادة ؟ قال : حال يأخذها المرء نفسه من غير أن تكون مسنونة يجري عليها مجرى ما هو مألوف طبيعي»[6] وقد توسع ابن خلدون في الحديث عن الملكة وفصلها بدقة عجيبة ، فبعد بيانه أن الملكة صفة راسخة ، تتم نتيجة استعمال الفعل وتكراره مرات عديدة ليثبت ويحكم : «والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكراره مرة بعد مرة حتى ترسخ صورته»[7] .

بعد هذا يقسم ابن خلدون تكرار تلك الأفعال إلى ثلاثة أقسام في القسم الأول يأتي التكرار الأول ويسميه صفة وفي القسم الثاني يأتي التكرار الثاني والذي تتكرر فيه الصفة ويسميه «حالا» وهي صفة متغيرة غير راسخة وفي القسم الأخير تتكرر هذه الحال وتزيد وتثبت وتسمى «ملكة» . «لأن الفعل يقع أولاً وتعود للذات منه صفة ثم تتكرر فتكون حالاً ، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة»[8] .

ومن خلال حديثه الدقيق عن مفهوم الملكة فإنه يوضح الفرق الموجود بين الملكة والطبع ، فالملكة هي فعل إختياري غير غريزي ، وإنما تشبه الطبع عندما يتم نتيجة المران والقدم فيظنه المشاهد طبيعياً وهو ليس كذلك لأنها تحدث دون فكر وروية مثل الطبع المتميز بالعفوية وعدم الكلفة[9] .

ويعطي ابن خلدون مثالاً متمثلاً في تحدث العرب بالفصحى وهي عبارة عن ملكة تكونت ورسخت فيهم فأصبحت لا شعورية ولهذا يعتقد بعض المغفلين أنها طبع وجبلة يتحدثها العرب دون جهد ومشقة ولهذا قيل أن العرب تنطق بالطبع[10] .

لكن الفرق بين الأمرين أن الملكة قبل اكتسابها تكون شعورية وبعد اكتسابها تكون لا شعورية أما الطبع فإنه منذ البداية غير شعوري لأنه فطري ولد مع الإنسان محكماً مثبتاً .

وقد لخص الشريف الجرجاني مفهوم الملكة انطلاقاً من هذه التعاريف السابقة ، بقوله : «وهي صفة راسخة في النفس وتحقيقه أنه تحصل للنفس هيئة بسبب فعل من الأفعال ، ولا يقال لتلك الهيئة كيفية نفسانية وتسمى حالة ما دامت سريعة الزوال ، فاذا ما تكررت ومارستها النفس حتى رسخت تلك الكيفية وصارت بطيئة الزوال فتصير ملكة ، وبالقياس الى ذلك الفعل عادة وخلقا»[11] .

وأضاف حاجي خليفة لمفهوم الملكة مفهوم الاستعداد الفطري أو الموهبة بالتعبير الحديث : «وقد تطلق الملكة على التهيؤ التام وهو أن يكون عنده ما يكفيه لاستعلام ما يراد»[12] .

والخلاصة من هذا أن الملكة هي صفة راسخة ثابتة لا تزول أو يصعب زوالها ، تصدر عنها أفعال إرادية لا شعورية فكأنها طبع غير شعوري ، تحصل بالممارسة والتكرار مرات عديدة على فترات متقاربة وهي نوعان روحية أو خلقية ومادية أو صناعية . ويتفق مفهوم الملكة هذا مع ما يقوله علماء النفس المحدثين لكن التعبير عنه يختلف ، فعلماء النفس يعبرون عن مفهوم الملكة بمصطلحات كالعادة أو المهارة ، أما مصطلح «الملكة» فيعنون به الاستعداد أو التهيؤ[13] . ومهما كان الأمر في اختلاف التسميات والمصطلحات فإن الملكة هي مهارة وقدرة على الإحكام .

الملكة اللغوية عند العلماء العرب القدامى والمحدثين :

عند تصفحنا لبعض نصوص التراث العربي القديم وجدنا - فيما يخص الملكة اللغوية - تعاريف لها متكاملة فهذا يأتي بشيء وذاك يكمله وآخر يعطي تعريفا جامعاً مانعاً ، يعرف ابن خلدون الملكة اللغوية بصورة موجزة جامعة وهي عنده صناعة وقدرة على تبليغ الأغراض والمقاصد ، لا تتم من خلال المفردة وإنما من خلال التركيب وهو نوعان : تركيب أساسي (ملكة أساسية) غرضه تبليغ المعنى وتركيب بلاغي (ملكة بيانية) غرضه تزيين الكلام وتنميقه بقوله : «إعلم أن اللغات كلها شبيعة بالصناعة إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة ونقصانها ، وليس ذلك بالنظر الى المفردات وإنما النظر إلى التراكيب ، فاذا وصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية من افادة مقصودة للسامع وهذا هو معنى البلاغة»[14] .

إن هذا التعريف الخلدوني للملكة اللغوية يحتاج الى تفصيل وتكملة إذ اعتبر الملكة اللغوية أو اللغة ملكة وصناعة ولكن ما هي هذه اللغة بالضبط ؟

الملكة اللغوية قياس وابتكار :

عند الرجوع أيضاً الى التراث العربي القديم نجد ابن جني (ت 392هـ) يكاد يقترب من التعريف التام للملكة اللغوية من خلال تعريفه للنحو - وهو أحد مستويات اللغة - بأنه اتباع طريقة العرب في كلامهم : «النحو هو انتحاء سمت كلام العرب»[15] وهذا طبعاً عن طريق السماع لهذا الكلام من جهة والقياس أو البناء عليه من جهة ثانية .

ويكرر تقريبا المعنى نفسه في موضع آخر بقوله أن اللغة ليست قياسا فقط بل يضاف اليها السماع : «ومعاذ الله أن نوحي أن جميع اللغة تستدرك بالأدلة قياسا»[16] ويوضح هذان المفهومان القياس والسماع - وهما ركيزتا الملكة اللغوية ، يقول : «ألا ترى أنك لم تسمع أنت ولاغيرك إسم كل فاعل ولا مفعول وإنما سمعت البعض قست عليه غيره فاذا سمعت قام زيد أجزت ظرف بشر وكرم خالد»[17] .

وقد وسع ابن خلدون مفهوم هذه الملكة ووضحها تمام الوضوح من خلال تركيزه على الجمل والتراكيب في اللغة ولا بسماع هذه الجمل والتركيب فقط ، وانما بتكرارها مرات عديدة حتى تصير صفة وملكة راسخة ثم بالبناء عليها بابداع جمع وتراكيب عديدة من خلال هذا السماع المتكرر بقوله : «فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة العربية موجود فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات فيلقفها أولاً ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقفها كذلك ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر الى أن يصير ملكة وصفة راسخة[18] .

الملكة اللغوية كصناعة (النسيج أو البناء) :

اعتبر العلماء العرب القدامى الملكة اللغوية صناعة من الصنائع كصناعات النسيج والبناء والورش الصباغية[19] لكن الجديد نجده دائماً عند ابن خلدون عندما اهتدى الى ما يسمى بالمنوال بالنسبة للنسيج والقالب بالنسبة للبناء ، ويعتبر المنوال والقالب بمثابة القاعدة أو النموذج الكامل الذي ينطلق منه مؤلف الكلام لينشي كلاماً مثلماً ينطلق النساج من المنوال

لينسج والبناء من القالب ليبني : «فان مؤلف الكلام هو كالبناء أو النساج والصورة الذهنية المنطبقة كالقالب الذي يبني فيه والمنوال الذي ينسج عليه»[20] .

وقد سار في هذا المعنى المحدثون من العرب ، فهذا عبد السلام المسدي يعتبر الملكة اللغوية قياساً وابتكاراً انطلاقاً من السماع والحفظ وكذلك الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح الذي يعتبر هذه الملكة بمثابة المثل أو الحدود الإجرائية التي نيطلق منها المتكلم ليؤلف جملا جديدة لم يسمعها من قبل[21] .

المحدثون والملكة اللغوية :

تسود في الأوساط الغربية عموماً نظريتان لغويتان حول تفسير الملكة اللغوية انطلاقاً من كيفية اكتسابها هما النظرية البنوية أو الوظيفية ، التي تكتفي بالوصف أو الشكل دون التعمق في المضون الحقيقي واعتبار الإنسان مجرد آلة مقلدة كما سنوضح ذلك أكثر ، ويمثل هذه النظرية ليونارد بلومفيلد L. Blomfield في أمريكا وأندري مارتيني A. Martinet في فرنسا . والنظرية التوليدية التفريعية التي تجاوزت الشكل والوصف الى المضون الداخلي الابداعي في اللغة ، وزعيم هذه النظرية هو نوام شومسكي N. Chomsky .

ترى النظرية البنوية للملكة اللغوية عادة من العادات تتكتسب بالمحاكاة والتقليد وبدرجة أقل بالقياس[22] وتهي عبارة عن سلوك اجتماعي يمكن اكتسابه وبشكل آلي وذلك من خلال التارين الشفوية والكتابة المكثفة[23] .

ولم تخلو هذه النظرية من النقد لأنها ركزت على جانب واحد وهو المحاكاة والتقليد وتركت الجانب الابداعي ال الخلاق في اللغة كما تناست المقدرة التي منحت للانسان على ابداع الكلام غير المنتهي انطلاقاً من نماذج معينة[24] .

ويعتبر شومسكي صاحب النظرية التوليدية – اللغة خلاقة بإبداع الكلام – تبعا لنظام قاعدي معين[25] ، ويقول في موضع آخر أن اكتساب اللغة لا يرتبط بحفظ وسماع الجمل والتراكيب بل يرتكز على ابداع وانشاء تراكيب وصل جديدة غير محدودة في حين أن الجمل والتراكيب المسموعة محدودة[26] ..

ويضيف شومسكي الى جانب هذا عامل الفطرة أو القدرة والملكة على حد تعبره عند تفريقه بين الملكة Performence والتأدية Compétence فالملكة هي عبارة عن مجوعة من القواعد اللغوية العامة المتشكلة في ذهن الإنسان التي تمكنه من اكتساب أي لغة على وجه الأرض أما التأدية فهي الإستعمال الفعلي للغة في ظروف معينة ملموسة[27] .

والواقع أن مفهوم المحدثين للملكة اللغوية - يقترب على العموم - مع مفهوم العلماء العرب القدامى لها وخاصة المدرسة التوليدية التفريعية التي تركز على الابداع الذي تناسته أو تجاهلته المدرسة الوظيفية المعتمدة على الشكل والمحاكاة .

تحديد ملكة اللغة العربية أو العربية الفصحى :

لم يكتف علماؤنا القدامى بتعريف الملكة والملكة اللغوية عموماً بل بينوا أيضا مفهوم ملكة اللغة العربية أو ما يعرف بالعربية الفصحى وشروطها وانحصارها في الميدان الأدبي الفني ابتداء من عصر الانحطاط وهذا كله من أجل ابراز المفهوم الحقيقي للعربية الفصحى وبالتالي ماذا نعلم للحصول على الملكة اللغوية .

لقد سبق أن بحث الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح في مفهوم الفصاحة اللغوية في الاصطلاح انطلاقاً من كتاب سيبويه حيث بين أن أحد الصور المعنوية للفصاحة اللغوية في نظام سيبويه هو القبول اللغوي[28] وانطلاقاً أيضاً من كتاب البيان والتبيين للجاحظ حيث أبرز أن الفصيح هو الذي لا يفهم العبارات غير المطابقة لنظام العربية[28] ونزيد الأمر توضيحا بذكر التعريف الجامع المانع الذي نجده عند الفارابي ، وهو اتباع النظام العربي بكل مستوياته اللغوية من أصوات ومفردات وتراكيب ومعاني بقوله : «فينشأ من نشأ فيهم (أي العرب) على اعتيادهم النطق بحروفهم وألفاظهم من حيث لا يتعدون اعتيادهم لها في أنفسهم وعلى ألسنتهم حتى لا يعرفوا غيرها حتى تحفوا ألسنتهم عن كل لفظ سواهم وعن كل تشكيل تلك الألفاظ غير التشكيل الذي تشكل فيهم وعلى كل ترتيب للأقاويل سوى ما اعتادوه وهذه التي تمكنت في ألسنتهم بالعادة على ما أخذوه من سلف منهم ... فهذا هو الفصيح»[29] .

وقد ذكر هؤلاء العلماء شروط هذه الفصاحة المتمثلة في :

- الكثرة أو الشيوع نجد هذا في عبارة أبي العلاء : «أحمل على الأكثر وأسمى ما خالفني لغات»[30] كما اتبع سيبويه هذا المقياس في كتابه الذي كثيراً ما يقول مثلاً أن هذا التركيب هو كثير أو مطرد في لغة العرب ويتكلم به ناس كثيرون منهم ولعل ذكر بعض الأمثلة يغني عن التفصيل يقول مثلاً : «وأن رفعته أجمع كان عربياً كثيراً ... وهو كثير في كلام العرب»[31] وقد اتفق كل العلماء اللاحقين على هذا المقياس[32] .

- ارتباط الفصاحة بالعرب الفصحاء : وهم العرب الموثوق بعربيتهم سكان الجزيرة العربية عموماً من بدو وحضر في العصر الجاهلي وسكان البادية الوسطى عموما ابتداء من القرن الثاني

الهجري حتى القرن الرابع منه[33] وقد تقلص هذا المفهوم الواسع للفصاحة فاقتصر على التعبير الفني البليغ وبهذا أصبحت العربية الفصحى لغة أدب وكتابة وطبقة معينة خاصة بعد ما كانت لغة العرب عامتهم وخاصتهم مشافهة وكتابة حسث ابتعدت عن الميادين الحساسة كالتخاطب اليومي والميدان العلمي الذي تركته للغات العامية والأجنبية وهذا نتيجة هذا التضييق لمجال الفصحى الذي كان سببه التخلف الثقافي والإنحطاط الفكري والحضاري ولكي تعود لهذه الفصحى مكانتها وتنتشر في كل الميادين لابد من بيان المفهوم الصحيح للفصحة وذلك باحياء التعبير الفصيح غير المتكلف الذي يتميز بالخفة والاقتصاد الموجود في التخطاب اليومي والمفقود اليوم في العربية الفصحى وهو موجود أصلا فيها وصفة هؤلاء العلماء العرب القدامى الذين شافهوا فصحاء العرب[34] .

كيفية حصول ملكة اللغة :

لقد تفطّن علماؤنا القدامى الى طرائق وكيفيات الاكتساب اللغوي أو كيفية الحصول على ملكة اللغة كالممارسة (خاصة كيفية تعلم اللغة من خلال القواعد اللغوية) ومن خلال معاني الكلمات واتباع النظرية الكلية ومراعاة الدوافع والحوافز في تعلم اللغة .

أهمية الممارسة في تعلم اللغة :

يعتبر ابن خلدون السمع أبا الملكات اللسانية[35] ويوضح هذا السمع في موضع آخر بقوله : «يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقفها أولاً ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقفها كذلك ثم لا يزال سماعه لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر الى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة[36] .

وقد بين مختلف العلماء القدامى أهمية الممارسة أو التدريب في اللغة يذكر أولاً خالد بن صفوان أن تدريب اللسان على الكلام طبية لأن حبسه يؤدي الى عدم الاجادة والتعبير بقوله : «وقال رجل لخالد بن صفوان أنك لتكثر (أي تطيل الكلام فقال أكثر لضربني أحدهما فيما لا تغني فيه القلة والآخر لتمرين اللسان فان حبسه يورث العقلة»[37] ويرجع ابن المقفع رقة وعذوبة وعدم عذوبة الكلام الى كثرة استعمال اللسان : وقال ابن المقفع اذا كثر تقليب اللسان رقت جوانبه ولانت عذوبته»[38] ويقرن العتابي (ت 835) صعوبة النطق بمخارج الحروف الى عدم استعمال اللسان[39] .

ويبين الجاحظ أهمية الممارسة للغة من خلال النطق الى البيان والإجادة في اللسان بقوله : «وكانوا (أي العرب) يروون صبيانهم الأرجاز ويعلمونهم المناقلات ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الإعراب لأن ذلك يفتق اللهاة (اللسان) ويفتح الجرم لأن اللسان اذا أكثرت تحريكه وقد لان واذا أقللت تقليبه وأطلت اسكاته خبأ وغلظ»[40] .

ويرى ابن خلدون في هذا المجال ، أن أهم وسيلة سهلة للحصول على الملكة اللغوية هي الحوار والجدال : «وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مراميها»[41] .

دور الحفظ والقياس في حصول ملكة اللغة :

تتسم الممارسة للغة من خلال :

أولاً : الحفظ لكلام العرب من قرآن وحديث وشعر ونثر وغير ذلك كما يؤكد على ذلك صراحة ابن خلدون دائما من خلال بيانه كيفية الحصول على ملكة اللسان العربي بقوله : «ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويورم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم والجاري على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ...»[42] .

ثانيا : من خلال الاستعمال الفردي بعد الحفظ لكلام العرب هذا ، وهو التعبير عما في نفسه بأساليب العرب ، وفي الحالة الأولى أي الحفظ لكلام العرب يحفظ المتكلم الجمل مع معانيها في حين أنه في الحالة الثانية أي الاستعمال الفردي فانه يبتكر الجمل بمعانيها ويكون له أسلوب خاص أي يدخل في مرحلة الابداع والانشاء من خلال القياس والبناء على هذا الحفظ يقول ابن خلدون في هذا الصدد : «ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم»[43] .

وهذا ما يقوله تقريبا Alain Emille Chartier في العصر الحديث «كيف نتعلم لغة معينة نحفظ أولاً ثم بعد ذلك نتصرف ونبدع»[44] .

ولم يكتف ابن خلدون ببيان نظريته في حصول ملكة اللغة في نظره بل وضح هذا بابرازه مدى تطبيق هذه النظرية في مختلف الأمصار الإسلامية بعد انتشار الإسلام وفي عهده ، يبدأ بأهل افريقيا والمغرب الذين كانت ملكتهم اللسانية ناقصة تماما لأنهم كانوا يعتمدون على حفظ القرآن وحده فيعجزون بعد ذلك على محاذاته والقياس عليه لأنه معجز فلا يبتكرون شيئاً : «فأما أهل افريقيا والمغرب فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة وذلك

أن القرآن لا تنشأ عنه في الغالب ملكة فخطة الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام»[45] أما أهل الأندلس بخلاف أهل افريقيا والمغرب فكانت لهم ملكة جيدة بسبب تفننهم في التعليم فلم يقتصروا على القرآن وحده بل أضافوا له الشعر والنثر وقوانين العربية من نحو وصرف وبلاغة ، فاستطاعوا أن يحذوا حذوه وأن ينشئوا على منواله[46] .

دور القواعد في حصول ملكة اللغة :

لقد اختلف العلماء كثيراً حول أهمية القواعد في تعلم اللغة ويمكن أن نجمل هذا الاختلاف في ثلاث فرق فريق بدعو الى تعليمها عند بداية تعلم اللغة أي اتخاذها غاية للحصول على ملكة اللغة وفريق يدعو الى ممارسة اللغة من خلال النصوص والنماذج الكلامية ، وفريق ثالث يدعو الى تعليم الضروري منها بعد مدة معينة من تعلم اللغة باتخاذها وسيلة للحصول على الملكة اللغوية واتخاذها غاية لكن للاطلاع والبحث العلمي بعد التمكن من اللغة كما سنرى ذلك بالتفصيل قديما وحديثا .

لقد ذكر علماؤنا القدامى منذ القرن الثاني الهجري أنه لا تصلح كل قواعد اللغة شاذها ومطردها في تعلم اللغة ، ومعنى هذا أن هناك نوعين من القواعد ، نوع علمي يفيد في الحصول على الملكة اللغوية ، وآخر نظري عميق متخصص يفيد في البحث والإطلاع العلمي لا غير .

لقد أشار الى هذه النقطة في البداية خلف الأحمر (ت 180هـ) عندما أبرز فائدة النحو وهي تقويم اللسان وتعلم اللغة ولذلك يحتاج الى القليل من غير المطول الذي أفاض فيه النحاة بقوله : «لما رأيت النحويين وأصحاب العربية استعملوا التطويل وكثرة العلل وأغفلوا ما يحتاج إليه المتبلغ في النحو فأمعنت النظر في كتاب ألفه لينتقي منه المتعلم عن التطويل مما يصلح لسانه في كتاب يكتبه أو شعر ينشده أو خطبة أو رسالة إن ألفها[47] .

ويذكر الجاحظ أن تفاصيل النحو لا تفيد في تعلم اللغة ، بل يدرس المتعلم ما يحتاج اليه في تقويم لسانه : «وأما النحو فلا تشغل قلبه (أي الصبي) به الا بقدر ما يؤدي الى السلامة من فاحش اللحن .. وعويص النحو لا يجدي في المعاملات ولا يضطر إليه في شيء»[48] أما ابن حزم (994 – 1063هـ) فيعتبر التعمق في النحو شيئا زائدا لكن يمكن أن يتخذ كحرفة لأنه مهما كان علماً[49] .

وقد وضح ابن خلدون وضعية دراسة قواعد اللغة أحسن توضيح في عصره وبين الطريقة الصحيحة لتعليمها حيث خصص لصناعة العربية على حد تعبيره وهي قواعد اللغة فصلاً بعنوان

فصل في أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم ، يطبق نظريته هذه أولاً على أهل الأندلس وان كان قد تعرض لأهل الأندلس سابقاً ببيانه مختلف العلوم التي كانت تدرس فانه هنا يتناول مدى وكيفية دراسة أهل الأندلس لقواعد اللغة هذه وحدها ، فيذكر أنه قد حصلت لهم ملكة اللغة العربية بسبب (استعمالهم الكثير للغة بالتمثل في التدريب على التراكيب والجمل ، بحيث اتخذوا هذه القوانين وسيلة للتمرن على النصوص : «وأهل صناعة العربية بالأندلس ومعلموها أقرب الى تحصيل هذه الملكة وتعليمها من سواهم لقيامهم فيها على شواهد العرب وأمثالهم والتفقه في الكثير من التراكيب في مجالس تعليمهم ، فيسبق الى المبتدىء كثير من الملكة أثناء التعليم»[50] .

أما أهل المغرب وافريقيا ، فلم تحصل لهم ملكة اللغة العربية بسبب دراستهم القوانين العربية النظرية الجدلية ، بحيث اتخذوها غاية وصناعة دون استعمالهم للشواهد والتراكيب كما فعل أهل الأندلس : «وأما من سواهم من أهل المغرب وافريقيا فأجروا صناعة العربية مجرى العلوم وقطعوا النظر عن التفقه في تراكيب كلام العرب فأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق أو الجدل وبعدت عن مناحي اللسان وملكته وما ذلك الا لعدولهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه وغفلتهم عن الميزان في ذلك للتعلم»[51] .

وبعد هذا يخلص ابن خلدون الى الطريقة الصحيحة للحصول على ملكة اللغة وهي كثرة الحفظ لكلام العرب من قرآن وحديث وشعر ونثر وغير ذلك كاسبق ثم بعد ذلك يأتي الابداع والانشاء من خلال هذا الحفظ بقوله : «ان حصول ملكة اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه»[52] .

اختلاف ملكة اللسان عن علم اللسان :

بناء على هذا يميز ابن خلدون في قواعد اللغة بين نوعين من المعرفة معرفة عملية وأخرى نظرية ، ولا علاقة تربط بينهما من خلال الفصل السابق في أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم . وسبب ذلك أن صناعة العربية انما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة فهو علم بكيفية لا نفس كيفية[53] فقد نجد من له معرفة نظرية واسعة بقواعد اللغة ولكنه لا يحسن التكلم والكتابة بهذه اللغة والعكس صحيح فهناك من يتقن اللغة نطقاً وكتابة ولكنه لا يعرف قواعدها اطلاقا[54] .

ويقول بهذه الفكرة العلم اللغوي الحديث تماماً فليست هناك أية علاقة بين ملكة اللغة

وقواعدها مثلما لا توجد أي علاقة بين قواعد قيادة الدراجة ومهارتها[55] ولهذا فقد قسم أيضاً Jean Dubois القواعد اللغوية الى قسمين القواعد النظرية العلمية التي تهتم بالتحليل ، والبحث والقواعد التربوية العملية التي تهدف الى تعلم اللغة وبالتالي اكتسابها[56] .

وليس معنى هذا أن ابن خلدون لا يعطي أهمية للقواعد النظرية بل يرجع دراستها الى ما بعد الحصول على الملكة اللغوية أي للاطلاع والبحث لمن أراد ذلك بقوله : «فمن نزعت به همته بعد ذلك الى شيء من التوغل فليرق له ما شاء من التوغل»[57] .

ويقول في هذا الصدد الأستاذ عبد الرحمن حاج صالح مبينا كيف تكتسب اللغة منذ البداية ليس من خلال القواعد النظرية وانما من خلال المثل والنماذج الكلامية ، ثم بعد هذا يمكن له أن ينظر في القواعد النظرية مثل باقي القوانين العلمية الأخرى[58] .

وقد قنّن المحدثون العملية الأولى في تعلم اللغة عن طريق الممارسة المتكررة للتراكيب والجمل والشواهد ثم البناء عليها وسموها بالتمارين البنوية (ليست القواعد النظرية اطلاقا) وهي عديدة ومنها تمارين الزيادة أو التكرار والاستبدال والادخال والادماج والتحويل والتفريغ والتركيب واعادته والبناء والتعليل[59] .

تعلم الألفاظ والمعاني :

مثلما تطرق علماؤنا القدامى لدور القواعد في تعلم اللغة أو حصول ملكتها فقد تطرقوا كذلك الى الألفاظ والمعاني فقد أوضحوا - كما فعلوا بالنسبة للقواعد - أن هناك ألفاظا ومعاني عامة تتعلم وأخرى خاصة بالمتخصص لا تجب معرفتها على الجميع وفي هذا المعنى يقول الزجاجي : «وليس كل العرب يعرفون اللغة كلها غريبها وواضحها ومستعملها وشاذها بل هم في ذلك طبقات يتفاضلون فيها ... وأما اللغة الواضحة المستعملة سوى الشاذ والنادر فهم فيها شرع واحد»[60] ويقول في نفس المعنى ابن فارس : «وذلك أن طالب العلم يكتفي من أسماء الطويل باسم الطويل ولا يضيره أن لا يعرف الأشق والأمق (من أسماء الطويل»[61] .

وقد أثبت المحدثون هذه المنهجية الدقيقة في تعلم الألفاظ للمعاني حيث يوضح W.Mackey أنه لا توجد طريقة تعلم كل ألفاظ اللغة كما أنه لا يوجد شخص يتكلم لغة المنشأ باتقان ويعرفها بكل تفاصيلها»[62] .

ويجب أن تُعلَّم المعاني على أساس الطريقة الكلية أي من خلال الجملة أو السياق لا من خلال المفردة ونلمس هذا لدى علمائنا من خلال ماجاء في مقدمة كتاب أساس البلاغة

للزمخشري يقول : «يسوق الكلمات متناسقة لا مرسلة بدراً ومتناظمة لاطرائق قدداً»[63] وقد طبق الزمخشري هذه الطريقة فعلاً في قاموسه هذا - أساس البلاغة - فهو مثلاً في شرح كلمة «أمة» فإنه يأتي بها في عدة سياقات وجبل : «أمي يا أمة الله - النساء أماء اللّه - وتقول المرأة أنا آمية اللّه ...» [64] .

وقد ذكر المحدثون هذا أيضا فهذا W.Mackey يبين أن تكرار الكلمة من خلال السياق يبقى هو الأهم في الفهم والتعلم[65] وهذا ليدرك المتعلم بنفسه المعنى الجديد .

ويتم تعلم المعاني من خلال الاشارة الى الشيء وقد ذكر هذا أيضا علماؤنا القدامى كما يقول الفارابي : «والأمور التي تستعمل انما ينحى بها تلك الأحوال التي ينبغي أن تحصل للمتعلم في الشيء الذي يتعلمه وهذه الأمور كثيرة منها استعمال الألفاظ الدالة على الشيء ... ووضع الشيء بحذاء العين» وفائدتها تسهيل الفهم وتصور الأشياء وحفظها[66] وكما يصرح بذلك الزمخشري : «فان قلت ما معنى تعليمه أسماء المسميات ؟ قلت : أراه الاجناس التي خلقها الله وعلمه أن هذا اسمه فرس وهو اسمه كذا وهذا اسمه كذا»[67] .

ويذكر هذا في العصر الحديث T.Todorov أن تعلم معنى الكلمة يجب أن يقرن مع الشيء الذي تدل عليه[68] .

أهمية الدوافع والحوافز في حصول ملكة اللغة :

لم يهمل العلماء العرب القدامى دور الدوافع والحوافز أي الوسائل المساعدة والسهلة لحصول ملكة اللغة كالحاجة والطبع والرغبة واعتماد ما يسمى بالوسائل السمعية البصرية .

يبين الجاحظ أن الحاجة من أهم العوامل المساعدة في تعلم اللغة فعلى قدر حاجة التعامل وشدته أو خفته يكون تعلم اللغة بقوله : «ان من اعون الأسباب على تعلم اللغة فرط الحاجة الى ذلك وعلى قدر الضرورة اليها في المعاملة يكون البلوغ فيها والتقصير عنها»[69] .

ويعطي الجاحظ في ذلك مثالا واقعيا من عصره وهو أن الرجل الذي يبيع الدقيق عندما يتعامل مع الزنوج فانه يتعلم لغتهم ويتحدث بلسانهم لأنحاجته معهم كثيرة وهي البيع فهو مضطر لذلك لكي يتفاهم معهم ، في حين أن هذا الرجل عندما يتعامل مع الخوز ويلازمهم مدة طويلة فانه لا يتعلم لغتهم وبالتالي لا يتحدث بكلامهم لانعدام المصلحة معهم وهي البيع : «يتنخّس (يبيع العبيد) في بيع الزنج وابتياعهم مشهراً واحداً فيتكلم بعامة كلامهم ويبايع الخوز ويحاورهم زماناً فلا يتعلم منهم بطائل»[70] .

ويذكر جون ديوي J.Dewey للمعنى نفسه بقوله لقد تعلمنا الكلام في سهولة ويسر ، تعلّمنا الكلام بالكلام حين كنا بحاجة الى الكلام أو حين كان لدينا ما نقول أو نتحدث عنه»[71] .

وقد أشار إبن سينا الى أهمية الوسائل السمعية البصرية فيقرن تعلم اللغة بارتباط العبارة مع الاشارة الى الشيء أو احضاره : «وحتى وان الاشارة اذا اقترنت بالعبارة أوقعت المعنى في النفس ايقاعا جليا فيكون ذلك سببا لأن يقع عندها لأمر فضل موقع»[72] .

ونلاحظ ابتعاد اللغة العربية في تعليمها عن هذه الطرق العلمية السليمة ابتداء من عصر الانحطاط وما نزال نعاني منه ، فأصبحت لغة صعبة التعلم والانتشار في شتى الميادين فلا بد اذن من مراعاة كل هذه الطرق والعوامل المساعدة للحصول على ملكة اللغة من خلال الممارسة المتكررة المقرونة بالتدريب عن طريق الحفظ ثم البناء والقياس عليه واتباع الطريقة الكلية في هذا التعلم ومراعاة ما يسمى بالدوافع والحوافز . وان نقص احداها أو بعضها يؤدي الى الخلل وربما الى عدم تعلم اللغة .

الهوامش

(1) الحروف تحقيق محسن مهدي دار الشرق بيروت ، لبنان ، 1970 ، ص 135 .
(2) رئاسل الفارابي ، مطبعة دار المعارف العثمانية الهند 1346 هـ ص 8 .
(3) نفسه ، ص 7 .
(4) رسائل اخوان الصفاء ، دار بيروت للطباعة والنشر 1983 ، ص 32 – 42 .
(5) البرهان من كتاب الشفاء . تحقيق عبد الرحمن بدوي مكتبة النهضة العربية القاهرة 1976 ص 192 .
(6) الامتاع والمؤانسة مكتبة الحياة بيروت ، لبنان ج 3 ص 132 – 133 .
(7) المقدمة تحقيق علي عبد الواحد وافي لجنة البيان العربي ط 2 4 أجزاء بيروت لبنان ج 3 ص 1075 .
(8) المصدر نفسه ج 4 ص 1389 .
(9) المصدر نفسه ج 4 ص 1399 .
(10) المصدر نفسه ج 4 ص 1399 .
(11) التعريفات الدار التونسية للنشر ، 1971 ص120 .
(12) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون د . سعادت القسطنطينية 1311 هـ ج 1 ص 120 .
(13) عاقل عاقل ، معجم علم النفس ، دار العلم للملايين بيروت لبنان ص 41 .
(14) المقدمة ج 4 ص 1088 .
(15) الخصائص ، تحقيق على النجار 3 أجزاء دار الهدى للطباعة والنشر بيروت لبنان ج 1 ص 34 .
(16) المصدر نفسه ج 2 ص 42 .
(17) المصدر نفسه ج 1 ص 317 .
(18) المقدمة ج 4 ص 1389 .
(19) أنظر في المغنى للقاضي عبد الجبار ج 16 ص 209 رسائل اخوان الصفا ج 1 ص 218 ودلائل الإعجاز للجرجاني ص 40 .
(20) المقدمة ج 4 ص 1413 .
(21) أنظر المسدي التفكير اللساني في الحضارة العربية ص 219 – 220 وعبد الرحمن الحاج صالح مدخل الى علم اللسان عدد 1 ص 40 .

(22) عبد السلام المسدي ، التفكير اللساني في الحضارة العربية الدار العربية للكتاب ليبيا تونس 1981 ، ص 19 .
(23) ابراهيم عاجي ، الابداع في اللغة مجلة الفكر العربي المعاصر عدد 2 ص 162 .
(24) عبد الرحمن الحاج صالح أثر اللسانيات ... اللسانيات عدد 4 ص 20 .
(25) Principes de Phanlogie générale traduction Pierre Enave. P 26 .
(26) Structures syntaxiques traduit par Michel Pradeau P. 17 .
(27) ابراهيم عاجي الابداع في اللغة مجلة الفكر العربي المعاصر عدد 39 ، ص 163 .
(28) في علم العربية وعلم اللسان العام ج 1 ص 53 – 54 .
(29) الحروف ص 141 – 142 .
(30) الزبيدي طبقات اللغويين والنحويين تحقيق محمد أبو الفضل ابراهم ط 1 مطبعة سامي الجندي مصر ص 34 .
(31) الكتاب جزآن منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت لبنان 1967 ج 1 ص 140 .
(32) أنظر ابن جني الخصائص ج 4 ص 25 وعبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ص 153 .
(33) أحمد الاسكندري قرارات المجتمع والاحتياج لها ج 1 ص 22 .
(34) عبد الرحمن الحاج صالح الأسس العلمية لتطوير تدريس اللغة العربية ندوة تعليم اللغة العربية الجزائر 1984 ص 4 .
(35) المقدمة ج 4 ص 1075 .
(36) المقدمة ج 4 ص 1389 .
(37) الكامل في اللغة والأدب للمبرد ، مكتبة المعارف جزآن ج 1 ص 246 .
(38) المصدر السابق ج 1 ص 270 .
(39) المصدر السابق ج 1 ص 370 .
(40) البيان والتبيين دار الكتب العلمية 3 أجزاء بيروت لبنان ج 1 ص 154 .
(41) المقدمة ج 3 ص 1121 .
(42) المقدمة ج 4 ص 1395 – 1396 .
(43) المقدمة ج 4 ص 1396 .
(44) Propos sur L'éducation. PUF Paris 6em edition 1954 P. 12 .
(45) المقدمة ج 4 ص 1381 .
(46) المقدمة ج 4 ص 1361 .
(47) مقدمة في النحو ، تحقيق عز الدين التنوخي مطبعة الترقي دمشق 1961 ص 33 – 34 .
(48) مجموع رسائل الجاحظ لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1943 ص 138 .
(49) رسائل إبن حزم تحقيق احسان رشيد دار الهناء القاهرة مصر ص 66 .
(50) المقدمة ج 4 ص 1398 .
(51) المقدمة ج 4 ص 1398 .
(52) المقدمة ج 4 ص 1398 – 1399 .
(53) المقدمة ج 4 ص 1396 .
(54) المقدمة ج 4 ص 1397 .
(55) Freinet (C) : La méthode naturelle, l'apprentissage de la langue P.35. .
(56) Jean Dubois: Grammaire scientifique et grammaire pédagogique. Langue française, N 14, P 11. .
(57) المقدمة ج 4 ص 1399 .
(58) أثر اللسانيات ... مجلة اللسانيات عدد 4 ص 70 .
(59) W. Mackey : Principes de didactique analytique, traduction Lorne Laforge PP.363-363. forge . Paris 1972.
(60) الأيضاح في علل النحو تحقيق مازن المبارك مكتبة دار العروبة القاهرة 1959 ، ص 92 .

(61) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها مطبعة المؤيد القاهرة 1910 ص 3 .

(62) W. Mackey : Principes de didactique analytique, p. 221. .

(63) أساس البلاغة ، تحقيق عبد الرحيم محمود دار المعرفة للطباعة والنشر ص ك . ل ،

(64) المصدر نفسه ص 26 .

(65) W. Mackey : Principes de didactique analytique, p. 356. .

(66) كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق ، تحقيق محسن مهدي دار الشروق بيروت لبنان ص 87 .

(67) الشاف ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ط 1 1977 7 أجزاء ، ج 1 ص 292 .

(68) Oswold Ducrot T.Tadorov: Dictionnaire encyclopédique des sciences de language, E. du Seuil 1972, P.94. .

(69) الحيوان ، تحقيق محمد عبد السلام هارون 7 أجزاء ط 1 مطبعة مصطفى الباجي الحلبي وأولاده بمصر 1943 ص 1362 ج 5 ص 289 – 290 .

(70) الكامل في اللغة والأدب للمبرد فصول مختارة من كتب الجاحظ هامش ص 20 .

(71) مدارس المستقبل ترجمة عبد الفتاح المنسياوي مكتبة النهضة المصرية القاهرة ص 94 .

(72) الشفاء ، المنطق تحقيق محمد الخضيري الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1974 ، ص 37 .